

انشاء اللغة العربية

عفايس الرومي الاسلامي

للكنور عبد الوهاب البرلسي

مدير جامعة اسيوط

تخيروا من كلامهم واشعارهم احسن لغاتهم واصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى سلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك افصح العرب .

كذلك كان لموقع الحجاز المتوسط نوعا ، وسهولة الوصول اليه ، وقوعه على طريق القوافل الرئيسي الذي يمتد من الشمال الى الجنوب ، ان اتاحت لقريش فرصة نادرة للقيام بنشاط تجاري واسع ، شمل اسواق صنعاء ، ومواني عمان ، واليمن ، وبلاد الحبشة ، ومصر ، والشام ، والبلاد الواقعة في حوض البحر المتوسط . وقد استفادت قريش من اشغالها بالتجارة فوائد مادية ومعنوية وادبية على جانب كبير من الاهمية . فكثرت اسفارهم ، ومخالطتهم لاقوام مختلفين كالفرس والروم من ذوي المدنيات القديمة والادب التالد ، ووقفهم على شئون السياسة واساليب التجارة واحوال الامم الاجتماعية والادبية ، ارتقى بمداركهم ، وثقف عقولهم ، وشهد اذواقهم وصقل لغتهم واثراها بالكثير من الكلمات التي اخذوها

ينبغي قبل الاجابة على السؤال المطروح للاستغناء ان نعبّر حقب التاريخ الاسلامي كله ونعود الى العصر الجاهلي في الجزيرة العربية ، لتعرف على حال اللغة فيه .

كان العرب الذين يقطنون الجزيرة العربية لغاتهم مختلفة ، والسنتهم شتى ، فلفة هذيل تختلف عن لغة اسد ، ولسان تميم يختلف عن لسان قريش ، وهكذا الشأن بالنسبة لسائر قبائل العرب .

غير ان قريشا كانت افصح العرب ، وارقاهم لغة ، واعذبهم لسانا . وقد اعانها على ذلك ما كان لها من نفوذ ديني واقتصادي وسياسي بين سائر القبائل .

كانت قريش جيرة البيت الادنين يقومون بسدائنه وكان العرب جميعا يحجون اليه ، فاتاح لها ذلك ان تاخذ من لغات القبائل اعذب كلماتها وارقاها ، وتضيفها الى لغتها فتشيرها .

قال ابن فارس : « كانت قريش مع فصاحتها وحسن لغتها ورقة السنتها اذا اتتهم وفود من العرب

من لغات هذه الامم (1) حتى وصلوا الى مستوى فكري ولغوي لم يصل اليه اهل البدو .

وقد حقق النفوذ الديني والاقتصادي لقريش نفوذا اساسيا قويا في سائر بلاد العرب في العصر الجاهلي . واساليب السياسة تستلزم درجة عالية في فن التعبير لا تتأتى الا للغة راقية غنية طيبة .

وهكذا اجتمعت لقريش في الجاهلية كل اسباب الفصاحة والبلاغة والرقي اللغوي . ولقد كان للفصاحة شأن عظيم عند العرب فعدوها مع الرماية والفروسية مزايا الرجل الكامل الثلاث . ومن امثالهم « جمال المرء في فصاحة لسانه » ، وائر عنهم أنهم قالوا : « اشتهر اليونان بالحكمة واهل الصين بالصناعة والاعراب ببلاغة المنطق » .

وكان تفوق العرب في الجاهلية في الشعر ، وكان ميلهم اليه ميزتهم الثقافية الوحيدة . وقد لمب شاعرهم ادوارا هامة في حياتهم الاجتماعية ، فاذا اشتبك قومه في معركة كان لسانه فعلا كسجاعتهم . اما في السلم فقد تثير قصيدته القبيلة وتدعو خطبه النارية الى الاضطراب والانشقاق .

وكان الشاعر ممثل القبيلة وخطيبها وعالمها ومؤرخها ، وكان فوق ذلك صحافي يومه ، ولذلك افذق عليه الامراء هداياهم الثمينة كسبا لمطفه . فشمرة كان اداة فعالة في تكوين الراي العام . وكان اغداق العطايا على الشاعر تحاشيا لهجوه يعرف عندهم (بقطع اللسان) .

والعرب يفوقون شعوب الارض جميعا باستحسانهم التعبير اللفظي واعجابهم به ، وباتارة الكلم لنفوسهم .

فلما شاء الله ان يبعث بخاتم رسله وانبيائه ، واختار محمدا القرشي لابلاغ رسالته ، انزل عليه القرآن الكريم معجزة قولية على درجة لا تسمى من الفصاحة والبلاغة ، اذهلت العرب كما اذهلت قريشا على فصاحتها وبلاغتها .

ولقد كان هذا الاعجاز في اعتقادهم اسطع برهان على صحة الاسلام ، ولذلك يمكن القول ان فوز الاسلام كان فوز لغة ، وكان على اليقين فوز كتاب . ومن هنا تاتي العلاقة السببية بين الاسلام واللغة العربية .

ثم كان الفتح الاسلامي وانتشار الدعوة في الامصار خارج الجزيرة العربية ، فانتشرت اللغة العربية بانتشار الدعوة ، واخذ المسلمون من غير العرب يقبلون على تعلم اللغة العربية لغة القرآن الكريم - مع اقبالهم على الدين الحنيف ليمرفوا احكام دينهم الجديد وقيموا شعائره .

دم تمض على وفاة النبي عليه السلام مائة عام حتى اصبح العرب اصحاب دولة عظيمة امتدت ارجاؤها من بحر الظلمات غربا الى حدود الصين شرقا ، ومن جبل اورال شمالا الى حدود السودان جنوبا . ودخل في دين العرب وفي لسانهم ودمهم من الشعوب واللغات والاجناس ما لم يعهده التاريخ من قبل حتى في اخبار اليونان والرومان .

(1) يؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم - الذي نزل بلغة قريش - من كلمات كثيرة ليست في الاصل عربية مثل :

اباريق : حكى الثعالبي في فقه اللغة انها فارسية ، وقال الجواليقي : الابريق فارسي معرب ومعناها طريق الماء .

استبرق : اخرج ابن ابي حاتم عن الضحاك انه الديباج الغليظ بلغة المعجم .

اخلد : قال الواسطي في الارشاد : اخلد في الارض ركن بالعبرية .

اسفلو : قال الواسطي في الارشاد هي : الكتب بالسريانية والقيوم هو الذي لا ينام بالسريانية ايضا .

اكواب : حكى ابن الجوزي انها الاكواز بالنبطية . واخرجها كذلك ابن جرير عن الضحاك .

سنس : قال الجواليقي هو رقيق الديباج بالفارسية ، وقال شيدلة هو بالهندية .

الصراط : حكى النقاش وابن الجوزي انه الطريق بلغة الروم . وكذلك جاء في كتاب الزينة لابي حاتم .

فردوس : هو البستان بالرومية والقسط والقسطاس هو المعدل بالرومية ايضا .

اليهم : قال شيدلة هو البحر بالبطية .

مشكاة : اخرج ابن ابي حاتم عن مجاهد قال : المشكاة الكوة بلغة الحبشة .

وأصبح القرآن الكريم هو الكتاب الذي يعتمد عليه المسلمون في تعلم اللغة العربية . ولولا الإسلام لما تانى للغة العربية أن تنتشر في العالم هذا الانتشار . ومن هنا كان التلازم بين انتشار الإسلام وانتشار اللغة العربية في عصوره الأولى .

ووطننا مصر أصدق مثال على صحة ما نقول . فقد كانت مصر قبل الفتح العربي تتخذ اللغة القبطية أداة للتعبير ، فلما دخل أهلها في دين العرب اتخذوا اللسان العربي وأصبحت اللغة العربية لغتهم الرسمية، كما أصبح القرآن الكريم عندهم كتاباً مدرسياً ينهل منه كل طالب علم . وما يزال القرآن في الأزهر وهو أعظم جامعة إسلامية في العالم ، أساساً لمنهج الدراسة والتهديب .

ولقد كانت اللغة العربية وستظل دائماً المقياس الصحيح للوعي الإسلامي والوازع الديني يقويان بقوتها ويضعفان بضعفها ، ونجد في مصر الدليل الساطع في إبان العهدين التركي والعثماني حينما ضعفت اللغة العربية نتيجة غلبة العنصر التركي على الحياة العامة ، فتفشى الجهل وكثر الفساد وشاعت الخرافات وانتشرت البدع . فلما قويت اللغة العربية في العصر الحديث بعد أن نقلت إليها علوم الحضارة الحديثة ، وانتشر التعليم ، قوى الوعي الإسلامي والوازع الديني بازدهار العلوم الدينية وكثرة البحوث الفقهية التي ساهم في نقلها إلى الناس وسائل الإعلام الحديثة كالمذياع والتلفزيون بالإضافة إلى الكتب والصحف العامة والمتخصصة والندوات والمؤتمرات . ويؤدي الأزهر من خلال معاهده وكتباته والمجالس التي تتبعه أعظم دور في هذا المضمار .

وينبغي ألا يغفل الدور العظيم الذي لعبته اللغة العربية في نقل الحضارة الإنسانية وأثراتها . فعندما ورث العرب المدنيات القديمة التي ارتفعت معالمها على شواطئ الرافدين وعلى سواحل البحر المتوسط الشرقية وفي وادي النيل ، واقتبسوا القيم من مآثر الإغريق والرومان وأضافوا إليه الكثير مما

ابتدعوه ، أصبحت اللغة العربية خلال بعض القرون الوسطى لغة العلم والثقافة والتقدم وال عمران في العالم قاطبة . فكان عدد المؤلفات الفلسفية والطبية والتاريخية والدينية والفلكية والجغرافية التي كتبت بها في المدة الواقعة بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر للميلاد أعظم مما كتب بأية لغة أخرى . وقد نقل هذا التراث إلى أوروبا في عصورها المظلمة ونشر فيها فكان له الفضل في بزوغ فجر اليقظة العلمية التي لم يزل العالم الغربي كله يتمتع حتى اليوم بشمراتها . ولا يزال أثر اللغة العربية ظاهراً في لغات الغرب التي استعارت منها الكثير من المفردات العلمية والفنية التي حوّاها الفكر الإسلامي .

ولعل أكبر أثر تركه الفكر الإسلامي عن طريق لغة القرآن إنما كان على اللغة الفارسية . فالمقلية الفارسية كانت من أسبق المقلبات التي اشتركت في تدوين الفكر الإسلامي سواء كان في الأدب شعره ونثره، أم في علوم الدين أو الفلسفة . فمنذ القرن الرابع الهجري بدأت الحضارة الإسلامية - مدونة باللغة الفارسية - تسير جنباً إلى جنب مع اللغة العربية كثمة لهذه الحضارة . وبدأ العلماء يكتبون باللغة العربية واللغة الفارسية في الموضوع الواحد . فلم تكدهم نهضتهم تقوم حتى غلبوا الألفاظ العربية على الألفاظ الفارسية . وإيران الإسلامية (فارس القديمة) تكتب الفارسية بالحروف العربية وأكثر من ستين في المائة من كلمات لغتهم عربية ، ومقياس البلاغة عندهم وفرة الألفاظ العربية والقدرة على استعمالها .

وغني عن البيان أن لغة القرآن الكريم لها أكبر الفضل في التقريب بين البلاد العربية والإسلامية في العصر الحديث لأنها اللغة المكتوبة فيها جميعاً ، ولها في القرآن نموذج يحتذى .

وأنا لندعو الله منزل القرآن أن يوفق الأقطار العربية جميعاً في إحياء لغة القرآن فتستعيد مكانتها في وجدان أبنائها وعلى الستهم وتستوعب علوم الحضارة الحديثة وتشارك في تقدمها .